فلسفة الكون
و
توازن الوجود

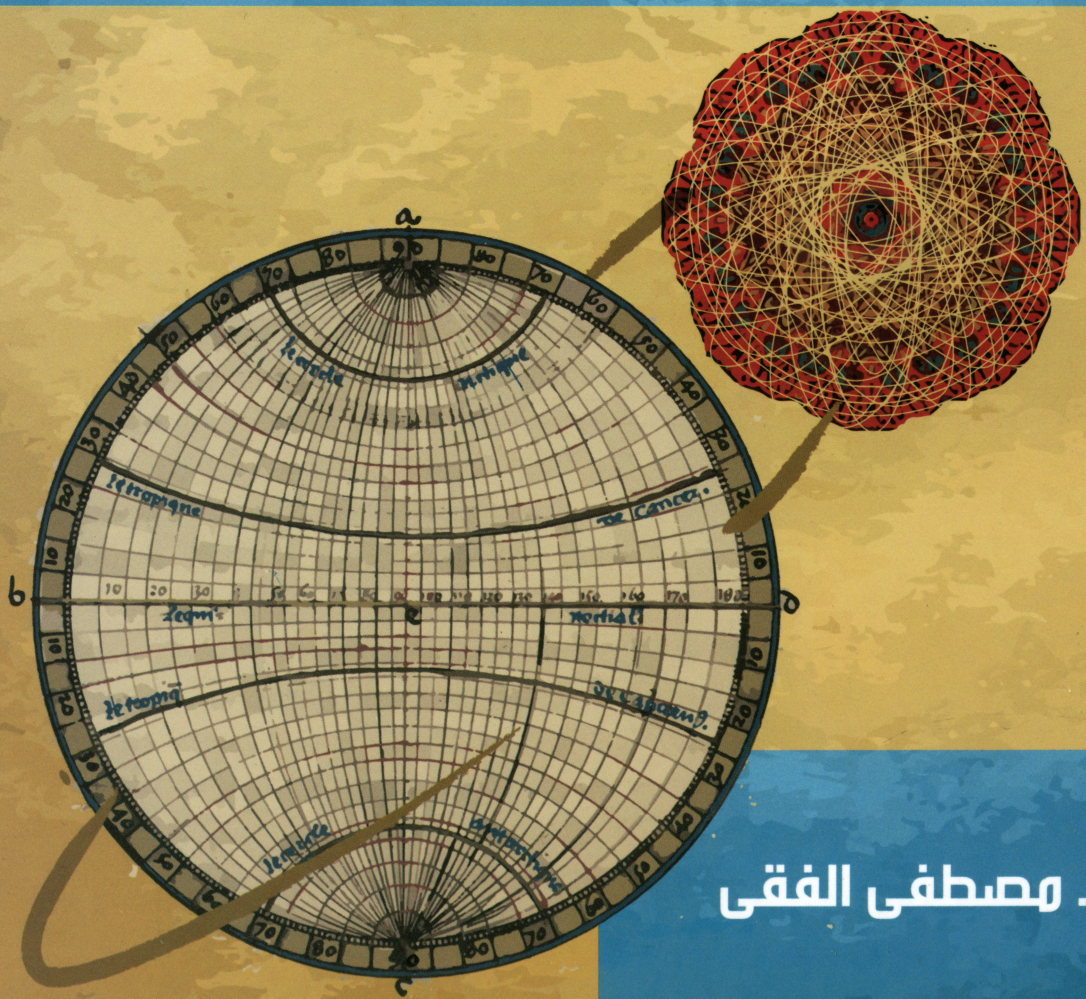

د. مصطفى الفقى

مقـدمـة

يرتكز الكون على فلسفة تستحق التأمل، ويقوم الوجود على توازن يثير الدهشة، بل إن الكوارث الكبرى في تاريخ البشرية والأوبئة التي اجتاحت الإنسانية هى تعبير ضمني عن تلك الفلسفة وذلك التوازن، فكتب التاريخ العسكري تكشف عن أن وباء «الطاعون» حصد أرواح عشرات الآلاف من الجنود، وحسم المعارك وقهر الغزاة، كما أن مرض «السل» استشرى بشكل وبائي في التجمعات العمالية المكدسة في عصر الثورة الصناعية في أوروبا حتى اجتاح العالم بشكل وبائي قبل اكتشاف «البنسلين» وغيره من المضادات الحيوية.

وتذكر الحركة الوطنية المصرية أن «صب مصر وشهيد غرامها» (مصطفى كامل) قد قضى في عامه الرابع والثلاثين بذلك الداء اللعين، وهل ننسى مرض «الكوليرا» الذي اجتاح الريف المصري في النصف الثاني من أربعينيات القرن الماضي؟ وهل غابت عنا الآثار الفتاكة «للملاريا» في أدغال أفريقيا وأحراش آسيا؟ إنها حكمة الخالق أن يبتلي البشرية بموجات من الكوارث والأوبئة ليقول للإنسان إنك «لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا»، فعندما تقدم البحث العلمي أطل داء لعين على إنسان العصر، وأعني به مرض «السرطان» الذي أظن أنه كان موجودًا منذ بدء الخليقة ولكن الذي حدث هو أن وسائل التشخيص وأساليب اكتشاف المرض هى التي تقدمت، ووضعته على خريطة الحياة ليؤكد عجز الإنسان، ويثبت أن إرادة الله فوق كل شيء، بل إن عالم الحيوان قد دخل وسيطًا في الأمراض منذ القدم، بدءًا من «برغوث» على ظهر فأر يحمل جرثومة «الطاعون»! مرورًا ببعوضة «الملاريا» ودودة «البلهارسيا» وصولًا إلى جنون

البقر و«أنفلونزا» الطيور، حتى أن المرض الأخير يبدو مثيرًا للدهشة ومبعثًا للقلق؛ لأنه ينتقل من الطير إلى الطير، ثم من الطير إلى الإنسان، ثم من الإنسان إلى الإنسان، دورة معقدة توحي بأن الله الذي أراد أن يعاقب «إنسان الرذيلة» منذ نهايات القرن الماضي هو الذي بعث بمرض نقص المناعة «الإيدز»، وجعل نقطة انطلاقه حيوانية هى الأخرى، حيث بدأ من القردة ليعيد للإنسان رشده، ويفرض عليه قدرًا من الحذر والعفة، كانت حياة الإنسان الماجنة بحاجة إليهما، وهكذا تتحكم قدرة الخالق ـ الذي يجب أن نسلم بوجوده مهما تكن ديانتنا ومعتقداتنا، لأن لكل شيء سببًا ـ في مسيرة الحياة وتوازن المخلوقات من الناحيتين البيولوجية والإيديولوجية حتى تدرك البشرية كلها أنها في قارب واحد، لا يعرف اختلاف القوميات أو تباين الديانات أو تعدد اللغات، فالإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، وهل غاب عنا حجم الكوارث الكبرى التي تعبر عن الطبيعة الغاضبة بين حين وآخر، من زلازل مروعة وأعاصير قاتلة وفيضانات مدمرة وبراكين مخيفة، إنه بحق وجود مضطرب، يضيف إليه الإنسان مصادر أخرى للتوتر والقلق والعذاب؛ بالحروب الدامية والصراعات الطاحنة والجرائم المنظمة، ثم نتساءل بعد ذلك إلى أين تمضى الحياة؟ وإلى متى يستمر الوجود؟ إنها ليست شطحة فلسفية أو سفسطة فكرية، ولكنها محاولة لاكتشاف مقومات تلك الفلسفة وعناصر ذلك التوازن. وهنا نشير إلى الملاحظات التالية:

أولًا: لا توجد في تاريخ المعمورة كائنات بلا جدوى ـ حتى ما اندثر منها ـ «فكل ميسرٌ لما خلق له»، وقد نتساءل أحيانًا عن جدوى وجود الحشرات الضارة والزواحف السامة والوحوش المفترسة، ويغيب عن ذهننا أن وجودها هو ضرورة للتوازن البيئي واستمرار الحياة على الأرض، ويكفى أن نتذكر أن من لدغات النحل يخرج العسل غذاءً للمرضى والناقهين.

ثانيًا: إن الإنسان يأكل الحيوان والنبات، والحيوان يأكل النبات، وقد يأكل الإنسان أيضًا في دورة عجيبة توحى بأن الحلقة المنتظمة للوجود مرتبطة بالعناصر السابقة دون تفرقة، بل إن مثار الدهشة الحقيقية هو ذلك التشابه الكبير بين الإنسان والحيوان خصوصًا «الثدييات»، وهو ما يؤكد أن نظرية «داروين» وإن كانت تحتاج إلى مراجعة

إلا أنها لا تخلو من متعة فلسفية وتفسير ـ قد نتفق معه أو نختلف ـ لمفهوم النشوء والارتقاء.

ثالثًا: إن حدود التوازن في الخلق لا تقف عند التوازن «البيولوجي»، ولكنها تتجاوز ذلك إلى التوازن «الإيديولوجي»، فما أكثر المعتقدات والديانات والفلسفات في ربوع الدنيا، ولقد عشت في الهند سنوات أربعًا، بدت لي فيها تلك الدولة العظيمة وكأنها متحف للزمان والمكان في آن واحد؛ ففيها توليفة كبيرة من كل شيء، فيها الغنى الفاحش والفقر المدقع، فيها الموحدون والوثنيون، وفيها لغات بغير عدد وكأنما يبدو ذلك تأكيدًا لما جاء في القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا﴾.

رابعًا: إن النفس البشرية والعقل الإنساني هما أشد تعقيدًا آلاف المرات من أكثر أجهزة «الكمبيوتر» تقدمًا ورقيًا، وما أزال أستمتع بتذكر جلوسي في مقهى «لاندمان» في العاصمة النمساوية، وعلى الطاولة نفسها التي كان يجلس عليها العالم النفسي المشهور «سيجموند فرويد»؛ لكي أربط بين التيارات المادية في الفكر الإنساني لأوروبا الحديثة من «الماركسية» إلى «الداروينية» وصولًا إلى «الفرويدية»، في محاولة من أصحاب هذه النظريات لصياغة فلسفة جديدة للكون والخروج بنظرية متوازنة للوجود، ولا أظن أنهم نجحوا تمامًا في ذلك!

خامسًا: إن «مالتوس» عندما خرج بنظريته المتشائمة حول المشكلة السكانية في العالم، وأنذر بالمخاطر المنتظرة للتوازن المفقود بين الحاجات والموارد لم يغفل في الوقت ذاته الآثار المعروفة للكوارث الطبيعية والأوبئة البشرية ودورها في استعادة قدر من ذلك التوازن الغائب، وعندما جاء من بعده مَنْ يبشرون بالتعديلات على هذا الفكر المتشائم من أمثال «دركايم» وغيره كانت الحسابات المطلوبة تضع الحروب أيضًا عاملًا مباشرًا في تحقيق ذلك التوازن، ويكفي أن نتذكر أن ضحايا الحرب العالمية الثانية يزيدون على الخمسين مليوناً في وقتها.

.. هذا طواف سريع حول الآثار الناجمة عن محاولات تلقائية تسعى بها الطبيعة

من جانب، والبشر من جانب آخر لإحداث توازن الوجود، ولعل الذي أثار عندي هذا الموضوع الآن هو تلك الزوبعة الدولية الكبرى التي أثارها مرض «أنفلونزا الطيور»، ومشهد ملايين الدجاج الذي جرى إعدامه على امتداد خريطة الدنيا، ولو أنه كان مذبوحًا في كل الأحوال! وقد بدا لى شعور حزين غامض عند التخلص من «الكتاكيت» الصغيرة، وهى تستقبل الحياة القصيرة، وتصافح الوجود العابر، كما أن مؤتمرًا طبيًا مصريًا قد أشار إلى أن عملية الإبادة الضرورية للدجاج سوف تؤدي إلى استفحال مرض «الأنيميا» بين أطفال مصر، وهو ما يحصد مئات أضعاف عدد ضحايا «أنفلونزا الطيور» حتى الآن، ثم يبقى خطر داهم آخر يتهدد المناطق الفقيرة من العالم، خصوصًا في القارة الأفريقية؛ وهو عودة مرض «السل» من جديد على نطاق واسع، وكأنما كانت القارة المقهورة التي فيها ما يكفيها بحاجة أيضًا إلى «أنفلونزا الخنازير»، ثم إلى عودة مرض «السل»، واستفحال خطر مرض «الإيدز» في تحالف لعين يسحق المجتمعات الإفريقية البائسة، والعجيب أن كل ذلك يحدث والبشرية تنفق البلايين من الدولارات كل عام في إنتاج أسلحة الدمار الشامل وحروب الإبادة والصراعات الدامية والمعارك الطاحنة!

د. مصطفى الفقي

ديسمبر ٢٠٠٩

إن فلسفة الوجود قد جعلت العلاقة بين الإنسان والحيوان والنبات علاقة متكاملة، فالأول يأكل الثاني والثالث. والثاني يأكل الثالث. والأول في انسجام بيولوجي لا يقدر عليه إلا الخالق وحده الذي يضبط إيقاع التوازن الإيديولوجي بين أنماط البشر أيضًا؛ لذلك فإنني أقول إنه إذا كانت العلوم تقوم على توظيف المعرفة لخدمة الصناعة تحت مسمى «التكنولوجيا»، وإذا كانت الآداب هى مرآة الحضارة ومخزونها الباقي؛ فإن الفنون هى التي تقوم على «قيمة الجمال» المستندة إلى النسب الرائعة بين الأشياء، ولست أشك لحظة في أن نهضة الفنون هى في النهاية معيار التقدم ومؤشر الارتقاء.

تصميم : احمد اغا

ISBN# 9789779104010

6 221149 038127

١٨ جنيهًا

الهيئة المصرية العامة للكتاب